# أسلوب المشاكلة في السور الطوال

## دراسة أسلوبية دلالية

د.إسراء مؤيد رشيد

كلية التربية للبنات- جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم


## ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...،

فإنّ الحديث في موضوع (أسلوب المشاكلة) ليس بجديد وإنّما أردت من خلال هذه الدراسة المتواضعة، أن أضيع يدي على بعض الإشارات والتنويرات التي تخص هذا الأسلوب البديع، كونه من الأساليب التي أثارت الجدل في ماهيتها وأصولها وانتمائها إلى أحد الفنون البلاغية، وقد زاد من أهمية هذا الموضوع كونه في (القرآن الكريم)، الذي تجلت فيه عظمة بيان أساليبه وتفرده في نظمه، وتعددت دراساته وتنوعت ميادينها، وشملت كل جوانبه وقد جاءت هذه الدراسة في سياق دراسات كثيرة، وربما كانت تتمة لها لكوني نظرت إلى هذا الأسلوب، من خلال الشاهد القرآني من جوانب متعددة بدءاً من ألفاظه وصولاً إلى أساليبه ونظمه محاولة الكشف عما خفي من أساليب بليغة لم يلتفت إليها بعض الباحثين.

وقد تضمنت هذه الدراسة، مقدمة موجزة ومبحثين،

جاء المبحث الأول في مطلبين، المطلب الأول موضحاً لأسلوب المشاكلة (لغةً) و(اصطلاحاً)، وتناول المطلب الثاني المشاكلة فناً وأصالةً.

أما المبحث الثاني فقد تضمن بعض الخصائص الدلالية والبلاغية لأسلوب المشاكلة في دراسة تطبيقية لنماذج المشاكلة.

وختم البحث ببعض الإشارات المهمة التي تجسدت من خلال هذه الدراسة.

## المقدمة

اللهم إني أسألك الحمد لك، والرضا عنك، والسكون إليك، والثقة بك، والقرار معك، فإن في الحمد لك زيادة، وفي الرضا عنك قُربة، وفي السكون إليك توكلاً، وفي الثقة بك إخلاصاً، وفي القرار معك مصافاة (١).

أما بعد:

فإنَّ (المشاكلة) من المصطلحات البلاغية التي أثارت الجدل في ماهيتها، أي موضوعها، وفي انتمائها، وفي موقعها من الفنون البلاغية الأخرى، وقد دفعني هذا الجدل إلى البحث في ماهية هذا الموضوع للتعرف عليه عن قرب، محاولة الكشف عن الخصائص الأسلوبية، وبيان بعض القيم الجمالية التي يتضمنها فضلاً عن كشف بعض الإشارات التي تخص السياق، فكانت هذه المحاولة التي تضمنت مبحثين وقعت بين مقدمة موجزةٍ وخاتمةٍ أرغب في أن أسجل فيها ما يتجلى من نتائج وإشارات تنتمي إلى فنون الأساليب وبما يتضمنه من مستويات دلالية وتنويرات بلاغية، وقد آثرت دراسته في القرآن الكريم، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، بإعجازه المبين وأسرار بيانه التي لا تنتهي ولا ينقضي منها العجب، وكلما أمعنا النظر وأعملنا الفكر اتضح لنا سراً من أسراره قد اختص به دون غيره من اللغات، فمجال أسلوبه واسع ويمكن أن تقوم فيه دراسات متنوعة بتنوع أسلوبه ونظمه الفريد الذي طالما أبهر العديدين منذ بداية خلقه وإلى يومنا هذا، فضلاً عن رغبتي ومحبتي بأن يكون مجال دراساتي القرآن الكريم لأضمن من خلاله قربي من الله جل وعلا ومرضاته، داعية المولى عز وجل أن يجعل دراستي المتواضعة في ميزان حسناتي، راجية الأجر والثواب ولمن ساعدني فيه أيضاً، فأرجو القبول وعليه توكلت.

---

(١) الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، استهلال كتابه.

# المبحث الأول
# المشاكلة لغةً واصطلاحاً

## المطلب الأول: المشاكلة لغةً واصطلاحاً:

جاء في حدّها لغةً: من الشكل وهو الشبه والمثل، فالمشاكلة هي المشابهة والمماثلة[1].

وفي الاصطلاح: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً[2]كقوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾[3] حيث وقعت المشاكلة في قوله تعالى (مَا فِي نَفۡسِكَ)، والمراد بها: بأني لا أعلم ما عندك وعبر بــ(النفس) للمشاكلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾[4]، فإن إطلاق المكر في جانب البارئ تعالى إنما هو لمشاكلة مانعة.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾[5] أي: أهملهم، وذكر (الإهمال) هنا بلفظ (النسيان) لوقوعه في صحبته.

ومن ذلك أمثلة كثيرة سنأتي على بيانها وتحليلها في موضعها إن شاء الله.

---

(1) القاموس المحيط: الفيروز آبادي، فصل الشين، باب اللام، ٣/ ٤٠١.

(2) الإيضاح: القزويني، ٢٩٥- ٢٩٦، وينظر أيضاً البلاغة العربية: عبد الرحمن حسن حبنكة، ٢/ ٤٣٨، جواهر البلاغة: الهاشمي، ١٥.

(3) المائدة: ١١٦.

(4) آل عمران: ٥٤.

(5) التوبة: ٦٧.

مثلاً ما ورد في سورة البقرة بقوله تعالى[1]: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وأيضاً في السورة نفسها قوله تعالى[2]:﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ وفي سورة التوبة قوله تعالى[3]:﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

فما ورد من أمثلةٍ سابقةٍ يقعُ ضمن النوع التحقيقي إذ يكون المصاحب مذكوراً.

أما ما وقع ضمن النوع التقديري، وهو أن لا يكون المصاحب موجوداً لفظاً وليس في الكلام ما يدل عليه[4]، قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[5]، أي تطهير الله؛ لأن الإيمان يُطهرُ النفوس.

يقول السيوطي: «الأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه (المعمودية) ويقولون: إنه تطهير، فعبّر عن الإيمان بــ(صِبْغَةَ ٱللَّهِ) للمشاكلة بهذه القرينة»[6].

## المطلب الثاني: المشاكلة فناً وأصالة

المشاكلة فن عربي أصيل، إذ لا تخفى على الدارس المختص أصالته حيث تجلى في النظم، وفي الكلام البليغ وليس ببعيد عن ذاكرتنا قول عمرو ابن كلثوم في معلقته الذي يؤكد ما قلناه بقوله:

**ألا لا يجهلــــنَّ أحـــدٌ علينــــا     فنجهل فــوق جهــل الجاهلينــا**

---

(1) آية ١٤- ١٥.

(2) آية ١٩٤.

(3) آية ٧٩.

(4) ينظر الإيضاح، ٢٩٥- ٢٩٦.

(5) البقرة: ١٣٨.

(6) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ٣/ ٢٨٢.

الذي يتجلى فيه أسلوب المشاكلة واضحاً بيّناً، ولكن الإعجاز المبين حينما آثر هذا اللون البلاغي الأصيل بانَ فيه الإعجاب، فأحبته النفوس، وامتاز بروعة المذاق التي ترتاح إليها القلوب، فضلاً عن القيم البلاغية التي يختص بها كل شاهد عن الآخر وليس قولنا جديد، إن هذا من أسرار البيان البديع.

فالمشاكلة، هي أحد فنون علم البديع، كما ذهب بعض البلاغيين فذكروا أنها من «المحسنات البديعية التي تختص بالمعنى ومرجعها إلى (الاستعادة) وإنما قَصْدُ المشاكلة باعث على (الاستعادة) وإنما سماها العلماء المشاكلة لخفاء وجه التشبيه، فأغفلوا أن يسموها استعادة وسموها (المشاكلة) وإنما هي الإتيان بالاستعادة لداعي مشاكلة لفظ للفظ وقع معه فإن كان اللفظ المقصود مشاكلته مذكوراً، فهي مشاكلة»[1].

وهنا قد يتبادر إلى أذهان الدارسين سؤال مهم ينطلق من تعريف (المشاكلة)، أنها المماثلة والمشابهة، ويبدو أن هذا التعريف يقرّب (المشاكلة) من فنون التشبيه، عامة ومن الضرب الذي يختفي فيه (وجه الشبه وأداة التشبيه)، وكأنها تجري مجرى التشبيه البليغ أو كما يقول أهل الصنعة أنه (مجمل، مؤكد)، ولكنه قد تفرد من بين صنوف التشبيه بخصوصية الإيقاع الموسيقي الناتج من المجانسة اللفظية، فضلاً عن تميّزها في مجال التكرار كونها لفظاً متكرراً، حيث فاقت على كل أنواعه، اللفظ المحض وغير المحض، فهي تكاد تكون تكراراً منوعاً على مستوى الكلمة أو الجملة، والأصح هي تكرار لفظي بلاغي فيه مجانسة وإيقاع موسيقي، وفيه مفارقة دلالية تستدعي الاستماع والإصغاء.

---

[1] التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١/ ٧٤٤، وينظر في ذلك ايضاً قراءة جديدة لنظام التكرار في البناء الصوتي للإعجاز القرآني: د.طالب محمد إسماعيل، ١٨٨.

وهذه الخصائص التي تفردت بها (المشاكلة) تبرهن على مدى أصالتها ودقتها وكونها نسقاً من سياق بلاغي أقرب إلى التشبيه البليغ.

# المبحث الثاني
# دراسة تطبيقية لنماذج المشاكلة

قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة].

لقد تضمن هذا النص البلاغي صوراً بلاغية وأسلوبية وجمالية غاية في الفخامة والجزالة:

١. تضمنت أسلوب المشاكلة بقوله (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) والمقصود بها هو الجزاء على الفعل، فالعرب تسمي الجزاء باسم الفعل[١]، وفي هذا تأكيد على حتمية الجزاء وقرب وقوعه.
٢. إن هذه الجملة جاءت للغرض السابق إلا أنها في الوقت نفسه هي (مجاز حسن)[٢] استعملها الخطاب القرآني ليصور لنا علمه المطلق بأمور عباده، وفي قوله (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ) تأكيد لما قلناه، حيث اتسع علم الله تعالى ليشمل كل ما يتعلق بالإنسان حتى ليصل إلى أدق تفاصيله بما يتصل بنفسه أو ما يخفيه في صدره أو لحظة يختارها ليخلوا إلى نفسه أو غيره.
٣. فهي قد تكون أسلوب مشابهة أو صور مركبة أتى بها الخطاب القرآني ليشبه استدراجهم من حيث لا يعلمون بصورة الاستهزاء، فهي تمثيل لصورة تعرفها العقول العربية وذلك أنهم بدرور نعم الله الدنيوية عليهم مع استمرار استهزائهم بالله تعالى هي استهزاء بحالهم، إذ جعلهم يظنون

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: للزركشي، ٣/ ٣٨١.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣/٣٨١.

أنه راض عنهم متأملين ذلك وهو تعالى قد حتم عذابهم[1]، إذ كيف يكون مقابلة الاستهزاء بالرزق المستمر إلا من باب الاستهزاء والاستدراج؟! وهذا ما هو مستقر عندهم من صور الاستهزاء، حيث أراد أن يؤكد لهم أن الله تعالى يعلم بنياتهم ليأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.

٤. ولكي يؤكد حتمية وقوع الجزاء أتى بقوله (ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ) جملة خبرية معترضة مع أسلوب القصر بتقديم لفظ الجلالة على الخبر الجملة الذي يفيد الإخبارعن جزائهم المؤكد، فضلاً عن اختصاص الله تعالى وحده بهذا الجزاء دون غيره، وربما أتى بفعل الاستهزاء مضارعاً ليؤكد استمرارية حدوثه مادام هناك استهزاء من قبلهم، وفي النهاية أن هذه الصيغة تفيد استحضار صورة الشيء الذي تقدمه وفيها معنى التوكيد وفي الوقت نفسه هي دعوة للتأمل والتدبر. ولا يفوتنا ونحن نتكلم عن حتمية الجزاء والأساليب المؤكدة لها أن تلفت الانتباه إلى أن أصل الجملة هو (يستهزئ الله بهم) ولكن بتقديمه كأنه ذكر الفاعل مرتين وفي هذا توكيد أيضاً.

٥. والمتأمل لهذه الآية والآيات التي سبقتها يرى أن عجائب أسرارها لا تنتهي، وربما يمكننا من خلال قراءتنا المتأنية لها أن نلمح فيها مشاكلة أخرى وهي توكيد وامتداد لما قيل سابقاً، <u>ففي الآية قولان وكلاهما صادر عن هؤلاء (المنافقين)</u>، الأول: <u>مع المؤمنين لما قالوا:</u> ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾، <u>والثاني: مع شياطينهم وهم في خلوة معهم معتقدين أنهم بمعزل عن عين الله تعالى وعلمه بقولهم:</u>﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾، فالقول الأول شاكل الثاني على صعيد العبارات والأساليب وفي كليهما بيان لحاله

[1] ينظر المحرر الوجيز: ابن عطية، ١/ ٣٢.

النفاق والكشف عن حقيقتهم غير المؤمنة، فلما كان القول الأول مع المؤمنين أتى به الخطاب القرآني بصيغة الفعلية والتي من معانيها التغيير والتبديل، وهذا هو حالهم اتجاه الإيمان بالله جل وعلا متغيرين متقلبين، ويمكن أن لا يكونوا مؤمنين أصلاً، ولما أراد أن يصف حالتهم الحقيقية وما هم عليه من عدم الإيمان الصادق جاء قولهم بصيغة الاسمية التي تفيد ثبوت الصفة، فصفة عدم الإيمان ثابتة عندهم، فهي معتقد من معتقداتهم، ولكي يؤكد هذه الصفة جاءت هذه الجملة مضمنة لأقوى أنواع التوكيد وأبلغها، وهو أسلوب القصر بـ(إنما) فضلاً عن الأدوات الأخرى من (أن والضمير) وغيرها.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]. والصبغ: «مصدر صَبَغْتُ، والصِّبغُ، المَصبُوغ، وفي قوله (صِبْغَةَ ٱللَّهِ) إشارة إلى ما أوجده الله تعالى في الناس من العقل المميز به عن البهائم كالفطرة وكانت النصارى إذا وُلد لهم ولد غمسوهُ بعد السابع في ماء عمودية يزعمون أن ذلك صِبغة»(١).

وربما يفهم مما تقدم أن من معاني الصبغة هو التميز، وقد كان هذا الفعل يخص النصارى دون غيرهم أرادوا به أن يتميزوا عن غيرهم من البشر بدليل قوله تعالى في غير هذا الموضع ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ لذلك أصبح سلوكاً مهماً من سلوكيات معتقداتهم وإيمانهم فهو دليل على إيمانهم وانتمائهم الخاص بهم بعيداً عن إيمانهم بالله تعالى ومن غيره لا يكون الواحد منهم نصرانياً، وربما استعملوه اعتقاداً منهم أنه يقوم بتطهير أنفسهم وتزكيتها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، مادة (صبغ).

وجيء بلفظ الصبغة هنا على طريقة المشاكلة[1] للمفاضلة بين صورتين فهي أسلوب تصويري وصفي، مقارن، والذي دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ المتضمن لأسلوب التفضيل الذي جاء في سياق الاستفهام الدال على النفي، حيث فاضل الخطاب القرآني هنا بين تطهير الله تعالى والذي أساسه هو الإيمان الفطري من قبله تعالى، إذ وضع فيهم العقول المؤمنة المميزة للحق ليرشدهم من خلالها إلى الإيمان به دون غيره، وبين إيمان النصارى الذي يحتاج إلى واسطة قطعاً هي غير الله تعالى وهي تلوينهم وتطهيرهم بهذا اللون من قبل قسيسيهم ليكونوا عبيداً لهم وربما أتى بالمشاكلة هنا في سياق الاستعارة، إذ أن إطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة وهي مشابهة خفية، حسنها قصد المشاكلة[2]. لمقصد بلاغي وهو أنه استعمل هذه اللفظة دون غيرها لأنها معروفة عندهم فعلاً ودلالةً والكلام من خلالها أبلغ وأعظم تأثيراً والمتأمل لما سبقها من آيات يدرك أن هذه اللفظة جيء بها ضمن أسلوب من أساليب المحاججة وهو الحوار، ليثبت من خلاله أحقية الله تعالى بهذا الإيمان وحده دون غيره، خشية أن يصدقهم أحد مستقبلاً ويقوم باتباعهم وفي النهاية هو أسلوب من اساليب التوكيد.

وفي السورة نفسها نجد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٣- ١٩٤].

جاء هذا النص البليغ في معرض معالجة حد من حدود الله تعالى وهو القتال وكيفيته وبيان وجوبه والكشف عن صوره، وربما التعرف على

---

(١) ينظر الكشاف: للزمخشري، ٩٩.

(٢) ينظر قراءة جديدة لنظام التكرار في البناء الصوتي للإعجاز القرآني، ١٨٩.

بعض مفرداته يوصلنا إلى المشاكلة فيه ولمدى بلاغة نظمه واستعماله لهذا الأسلوب والأساليب البلاغية الأخرى:

١. استعمل لفظ (القتال) وفيه دلالة عامة وهي المحاربة وتحرّي القتـل[١]، لما اقتضى السياق ذلك لأن المقابل في موضع الظالم الرافض للإيمـان بالله لذلك أتى به على صيغة الفعل الأمري الذي يفيد الوجـوب وذلـك درءاً للفتنة وإثبات الإيمان والدين لله تعالى وحده فأصبح هنا محاربتهم وقتلهم واجباً عليهم.

٢. وقد استدرك السياق بالقول: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ مستعملاً لفـظ (عدوان) وكان يمكن أن يعبر عن هذه الدلالة بلفظ آخر قد يكون القتال أو الهجوم أو أي لفظ آخر، ولكن آثر هذه اللفظة دون غيرها وفي هـذا دليل على دقة اختيار الخطاب القرآني لمفرداته وهذا هو سر من أسرار إعجاز نظمه، إذ اقتضى السياق أن يستبدل لفظة (القتال) بلفظة (عدوان) وهي من عدا: والعَدْو: التجاوز، ومن معانيه الإخـلال بالعدالـة فـي المعاملة[٢]، فيقال له العدوان. ومما تقدم نفهم أن العدوان هنا هو ظلـم للمقابل إذا ما وجدت القرينة سواء أكان مقاتلاً أو أي شـخص آخـر، والقرينة هنا قوله (انتهوا)، (الانتهاء) معناه: عدم الإقدام علـى القتـال، فمقابلتهم بالقتال مع انتهائهم هو عدوان لهم وظلم ولا يصـبح العـدوان ظلماً إلا في هذه الحالة لذلك خصصها بأسلوب الشرط أولاً ثم اسـتعمل أسلوب الحصر بقصد التخصيص، و(لا) هنا نافية للجنس، جاءت لتنفي كل صور العدوان إلا إذا كان المقابل ظالماً يستحق ذلك، لذلك عبر عن الاعتداء بلفظ العدوان بصيغة المصدر ليدل على ما سبق وأيضـاً أتـى

---

[١] ينظر المفردات، مادة (قتل).

[٢] ينظر المفردات: مادة عدا.

بالأداة (إلا). وفي النهاية أراد أن ينهيهم عن الظلم فيصبحوا ظالمين فيسلط عليهم من يعدو عليهم.

٣. وفضلاً على ما تقدم، إن التعبير بهذه اللفظة دون غيرها جاء لأجل المشاكلة والمجانسة اللفظية لقوله تعالى: (عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ) أي متى ما وجد الظلم يمكن أن يوجد العدوان.

٤. وقد يسمح بالتجاوز الذي جاء مفسراً لمعنى العدوان سابقاً ولكن أيضاً بقيد كما ترى في تتمة الآية التي عرضت لنا صوراً عديدة من صور القتال وأشكاله بقوله تعالى: (فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ) جملة شرطية مقيدة بقيد المبادرة بالاعتداء الذي قُيد بدلالة الظلم، فلا يكون بعد الظلم إلا مقابلته بالظلم نفسه، فقُيِّد جواب الشرط المُعبَّر عنه بأسلوب الأمر الذي يُعد واجباً مفروغاً منه بقيد وقوع الفعل الذي عُبر عنه بفعل الماضي الذي يفيد تحقيق الشيء ووقوعه.

قال الزمخشري: «سمي جزاء الظالمين (ظلماً) للمشاكلة» ويُفهم من كلام الزمخشري أن النص تضمن شاكلتين مترابطتين في بناء النص القرآني: **الأولى:** سمي جزاء الظالمين ظلماً[١]. **الثانية:** سمي جزاء الاعتداء اعتداءً.

وقد تقع المشاكلة في بيان إحدى سلوكيات كفار بني إسرائيل بقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

المكر معناه: صرف الغير عما يقصده بحيلةٍ[٢]، وقيل أيضاً: هو تلبيس فعل الإضرار بصورة النفع[٣].

---

[١] ينظر الكشاف، ١١٧، وينظر المحرر الوجيز، ١/ ٢١٠.

[٢] المفردات: مادة مكر.

[٣] ينظر قراءة جديدة لنظام التكرار، ١٨٧.

ومن خلال الآية الكريمة يمكن أن نستدل على نوعين من المكر، الأول: ما يخص مكر اليهود وهو مذموم لا محالة، وقد تمثل بخططهم وتدابيرهم وحيلهم وسعيهم الخبيث لدى ولاة الأمور لقتل سيدنا المسيح (عليه السلام)، أما الثاني: هو مكر الله تعالى حيث تمثل بقدرته تعالى على مقابلة تدابير اليهود وسعيهم بقوةٍ أخفقت كل مساعيهم التي ظنوا أنها قد نجحت، وهي قدرة متحققة ثابتة مؤكدة، وقد أكدها مستعملاً:

١. الفعل الماضي الذي يدل على التحقق موضحاً مكر الله تعالى.
٢. اسم التفضيل موازناً بين مكر الله تعالى ومكر اليهود، فضلاً عن الجملة الحالية الاسمية التي ساهمت في تصوير قدرة الله تعالى وبيانها بأنها قدرة لا يمكن أن تساويها أية قدرة بشرية وكأنها مسلطة عليهم تحيط بهم من كل جانب.

وقد وقعت المشاكلة هنا بتسمية تدبير الله تعالى الذي قابل حيلهم والتي أطلق على كليهما بلفظ المكر، وربما أراد بإطلاق لفظ المكر على تدبير الله تعالى إخبار لهم بأن الله تعالى عالم بما أخفوه من مكر فقابلهم وفاجأهم بمكر أقوى منه ليعجزهم.

ومتى كان اللفظ جزلاً كان المعنى كذلك، منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. ولم يقل من (طين) كما أخبر به سبحانه في غير موضع ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص]، إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد (التراب) لمعنى لطيف، فالمشاكلة وقعت في اختيار اللفظ المناسب للمعنى المناسب، إذ شاكل بين هذين العنصرين ويمكن أن ندلل على ذلك: أنه لما كان المقصود مقابلة من ادّعى في المسيح الإلهية أتى ما يُصغّر أمر خلقهِ عند من ادعى ذلك، فلهذا أتى بلفظ التراب لأنه أمس في المعنى دون غيره

من العناصر إذ أنه أدنى العنصرين وأكثفهما، وقد جاء هذا النص في سياق أسلوب التشبيه والتمثيل لغرض المحاججة، وقد أشركهما بمادة الخلق حتى يحاججهم بخلق آخر أغرب من خلق عيسى عليه السلام وهو خلق آدم عليه السلام فكلاهما خُلق بطريقةٍ خارجة عما هو مألوف فإذا كان المسيح خُلق وله أحد العنصرين وهي الأم، فآدم خُلِق من عدم لا يملك أي عنصرٍ، وكلاهما خُلِق من هذه المادة الصغيرة التي لا قيمة لها، وربما سأل سائل فإذا كان البشر يُعبد لأنه تميز بميزة مثل التي عند سيدنا المسيح فلماذا لم يتخذوا آدم عليه السلام إلهاً وليس المسيح لأنه فاقه تميزاً بما ذكرنا، ووجه المشاكلة هنا، لما كان المقام هو مقام تحقير لمن أدعى الإلهية لعيسى جاء بألفاظ تدل على هذا المعنى ليشاكل بينهما، وقد صحت هذه المشاكلة لأنه قابلها بنص آخر يشترك معه بالدلالة نفسها ولكن بلفظ آخر اقتضاه المقام وسياق الحال وهو (الطين)، ولما أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه إذ كان المطلوب الإعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به[1].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢] حدد لنا السياق نوعين من الخداع، الأول، يتصل بخداع المنافقين وهو خداع حقيقي لأن صفتهم هكذا، جرى توكيده أسلوبياً ودلالياً، فما يخص الأسلوب فإنه وقع خبراً مؤكداً والخبر هو صفة ثابتة، أما دلالياً، فالخداع معناه: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه[2]. وهذا هو ما يقوم به المنافق من إظهار الإيمان وإبطان الكفر، فهم يبدون غير ما يخفون، ولما كان المنافق متلوناً بأفعاله أتى بلفظ الخداع جملة فعلية دالة على

[1] ينظر البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٧٨، وينظر الكشاف، ١٧٤.

[2] المفردات، مادة خدع.

التقلب والتلون بصيغة (يُفاعل) مبالغة وتوكيداً لما في قلوب المنافقين من خداع وكذب.

والثاني خداع الله تعالى، ولما اختص الخداع بذات الله تعالى تغيرت الصيغة مستعملاً أسلوب الالتفات حيث انتقل من الفعلية إلى الإسمية لغرض إبراز قدرة الله تعالى المتمثلة باستدراجهم ومعاقبتهم، إذ أطلق لفظ الخداع على ما تقدم من باب الاستعارة التمثيلية التي تفيد تصوير الشيء وتجسيده فضلاً عن أسلوب المشاكلة المتمثل بالمحاكاة والمجانسة بين الألفاظ، حيث سميت العقوبة باسم ذنبها[١]، ويأتي هذا كثيراً في كلام العرب فهو أسلوب من أساليبها البليغة المؤثرة في النفس ولما كانت قدرة الله تعالى قدرة غالبة أتى بلفظ الخداع على صيغة اسم الفاعل الذي يفيد ثبوت الصفة التي يمثلها، وثبوت الصفة تعطي لصاحبها قدرةً وتمكيناً، والخداع هنا خداع رباني غالب متمكن. قيل (الخادع) اسم فاعل من خادَعْتُه فخدعته إذا غلبته[٢]. وربما أتى باسم الفاعل لدلالة أخرى مساندة لما قيل، فمن معانيه الحدوث أيضاً ليدل أن هذا الثبوت هو ثبوت عارض متغير حسب ما يقتضيه السياق والمقام، فصفة الخداع ليست من صفات الله الدائمة لذلك جاءت على صيغة اسم الفاعل الذي يكون وسطاً بين الفعل الدال على الحدوث والصفة المشبهة الدالة على الثبوت، ليشمل كلا المعنيين فضلاً عن دلالات أخرى اقتضاها السياق هي دلالة الزمن الماضي والحال والاستقبال[٣] ليبين من خلال هذه الأزمنة قدرة الله تعالى، فهي قدرة مطلقة غير مقيدة بزمن يمكن أن تظهر متى ما وُجد فعل يستوجب الرد عليه بهذه القدرة مثل الخداع، أو المكر، وما شابه ذلك.

---

[١] ينظر التحرير والتنوير، ٥/ ٢٣٩، وينظر المحرر الوجيز، ٢/ ٢١٢.

[٢] ينظر الكشاف، ٢٦٦.

[٣] ينظر معاني الأبنية في العربية: د.فاضل صالح السامرائي، ٥٠- ٥١.

وعلى ما تقدم، قد يدلنا السياق على مقابلة بليغة بين نصي الخداعين شملت كل جوانبها، فهي مقابلة على صعيد اللفظ، والمعنى، والأساليب، وحتى النظم.

وقد يلفت نظر الدارس من شواهد (المشاكلة) احتوى على ألفاظ ومعاني جزلة تميزت المشاكلة من خلالها قوله تعالى ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ ﴾ [المائدة: ٢٨].

شاكل الخطاب القرآني بين القولين مستعملاً الألفاظ نفسها والمقام نفسه مع الفارق في اختلاف الدلالة، فأحدهما يريد القتل ويصر عليه والثاني لا يريد القتل ويُصر عليه أيضاً، وربما نتوصل إلى هاتين الدلالتين من خلال مناقشة ما يحتويه كل من القولين من ألفاظ وعبارات ونظم جرت المشاكلة فيما بينها وهي: لما أراد توكيد الدلالة الأولى وهي إرادة القتل:

١. تصدر الجملة الفعل الذي يفيد التبدل والتغير ليدل على إمكانية حصوله وأتى به بالزمن الماضي في تركيب اقترن به (لام) القسم بـ(إن) الشرط (لئن) (بسطت) وهي من أساليب التوكيد.
٢. قدّم الجار والمجرور (إلى) على المفعول (يدك) للقصدية، كأنه يقصد قتله.
٣. ثم جملة الجواب (لتقتلني) المؤكدة لإمكان وقوعه أو توقعه.

أما قوله عز وجل: (مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ) فقد شاكله في اللفظ، وجانسه في المعنى، وقد جرى توكيده:

١. جاء جملة اسمية منفية بـ(ما) مؤكداً نفيها بـ(الباء)، ومعلوم أن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستقرار، فضلاً عن احتفاظ النظم برتبته الأصلية (مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ).

٢. إن تأملنا لسياق القول الكريم قد يفيدنا في توكيد هذه الدلالة أيضاً حيث قال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وهو فعل مؤكد بـ(أسلوب القسم) يفيد توكيد المعنى الذي يدل عليه وهو فعل القتل فضلاً عن (نون التوكيد) التي عززت التوكيد الأول، ثم قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠]، أي: «سمحت له قرينته وانقادت له وسوّلت»[١] ويساعدنا هذا القول على تحديد نفسية قابيل فهي نفس مطواعة قابلة للتغيير، فهي يمكن أن تتغير بسهولة ويسر من نفس مؤمنة إلى نفس كافرة وهذا ما حصل فعلاً بقتل أخيه أي أنها يمكن أن تقوم بأي شيء حسب الدافع الذي يدفعها[٢]، وهل يكون بعد قتل الأخ فعلاً أشنع منه!

وفي تأكيد الدلالة الثانية جرى استعمال:

١. الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت فضلاً عن أنه جاء بلفظ البسط (اسم فاعل) وقع خبراً والذي من دلالاته كما ذكرنا في غير هذا الموضع ثبوت الصفة في الزمن الماضي والحال والمستقبل.

٢. أخّر الجار والمجرور ليخالف ما جاء في النص السابق من دلالة والذي يدل على عدم الاهتمام والقصد كل ذلك داخل أسلوب النفي باستعمال أداة النفي (ما). ومثلما دلنا النص السابق بما استعمله من ألفاظ وأساليب على نفسية قابيل دلنا هذا النص على نفسية هابيل، فهي نفس مؤمنة ثابتة على إيمانها لا يمكن تغييرها، وكأن هابيل من خلال قوله أراد أن يثبت أنه ليس بقاتل أصلاً سواء أكان لأخيه أو لغيره في أي ظرف كان، وهل يوجد بعد التهديد بالقتل ظرف أشد منه حتى يدافع الإنسان عن نفسه؟! ذلك أن رغبة القتل غير موجودة أصلاً في تكوين شخصيته.

---

(١) المفردات، مادة طوع.

(٢) ينظر القرآن وعلم النفس: د.عبد العلي الجسماني، ٢٤٥.

ونقرأ في سورة التوبة قوله عز وعلا: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فـ(النسيان) من المنافقين مستعار للإشراك بالله أو للإعراض عند ابتغاء مرضاته وامتثال ما أمر به؛ لأن الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعترض عنه، و(نسيان الله إياهم) مشاكلة، أي: حرمانهم وإياهم مما أعد للؤمنين لأن ذلك يشبه النسيان عند قسمة الحظوظ(١).

وقيل معنى نسوه: أي تركوه حينما تركوا نبيه وشرعته فتركهم حين لم يهدهم ولا كفاهم عذاب النار، فالمشاكلة وقعت بين تركهم لله المتمثل بتركهم لنبيه؛ لأن الله هو الذي بعثه ليكون بشيراً لهم ونذيراً، والترك معناه: الإعراض عما جاء به النبي ﷺ من شرائع، تقابل وتماثل تركهم وإعراضهم بترك أقوى منه المتمثل بعدم هدايتهم أي ضلالهم، والذي يكون نتيجته عذابهم المتمثل بالنار، وقد يكون التعبير بالنسيان عن الترك مبالغة إذا بلغ وجوه الترك الوجه الذي يقترن به نسيان(٢).

ومما تقدم نجد أن دلالة المشاكلة هنا مقصودة، إذ لم تأتِ لمجرد المجانسة اللفظية وإنما جاءت لتقصد المعنى نفسه لبيان الأغراض التي نوهنا عنها.

وقد تأتي المشاكلة باختيار لفظة معينة دون غيرها حتى وإن اقتضى المقام مخالفة المجانسة اللفظية لدلالة يقتضيها السياق العام فتكون المجانسة والمشاكلة هنا معنوية، كما تمثل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) ينظر قراءة جديدة لنظام التكرار في البناء الصوتي، ١٨٩.

(٢) ينظر المحرر الوجيز، ٣/ ٢٨٠.

فهنا عبّر بالسخرية دون الاستهزاء، والمفروض أن المجانسة اللفظية تستعدي أن يكون التعبير به ليطابق ما قبله، وربما جاء ذلك لحكمة دلالية، فدلالة الاستهزاء هو إسماع الإساة للغير، والسخرية قد تكون في النفس[١] فمن غير المعقول أن يقوم الأنبياء بإسماع الإساءة لغيرهم لأن الكلام موجه إليهم لأن هذا السلوك ليس من سلوكياتهم، فهم الذين يرشدون الناس إلى عدم اتباع مثل هذه السلوكيات وينهون عنها، إذاً كيف يمكن أن يقوموا بها وهم في موضع القدوة، ولما كانت السخرية في النفس آثرها الخطاب القرآني لتمثل حالة الاستهزاء عندهم، وهي أيضاً من باب المشاكلة ليضمن من خلالها تنزيه أنبيائه من هذه الأفعال، وهذا النوع من المشاكلة قد ينطبق على ما قلناه في آية آل عمران السالفة الذكر. وقد نجد في سورة الأعراف مشاكلة جميلة بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ [الأعراف].

فالنص القرآني يشير إلى أن الستر باب عظيم من أبواب التقوى، وبينه وبين ستر الجسد من العري شبه كبير، لذلك كانت المشاكلة بين اللباس الحقيقي واللباس المعنوي.

ويجوز أن يكون المراد بالتقوى، تقوى الله وخشيته، وأطلق عليها (اللباس) إما بتخييل التقوى بلباس يلبس، وإما بتشبيه ملازمة تقوى الله بملازمة اللابس لباسه كقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ ﴾ [البقرة: ١٨٧] مع ما يحسن هذا الإطلاق من المشاكلة[٢].

فأنت ترى أن المجانسة هنا بين صورتين إحداهما حقيقية والأخرى مجازية وقد هيأ لهما ذلك تلك المشاكلة بين (لِبَاسٗا يُوَٰرِي) و(وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ).

---

[١] ينظر البرهان في علوم القرآن، ٣٨١.

[٢] ينظر التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٨/ ٧٥.

# الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات... وبعد:

فمن خلال ما جرى مناقشته وتحليله من آيات كريمة وقعت ضمن أسلوب المشاكلة يمكننا أن نتوصل إلى جملة نتائج وتنويرات اختتم بها بحثي الموسوم بـ(المشاكلة في السور الطوال) وهي:

١. المشاكلة هي فن واسع الأفق متنوع الأساليب، متنوع الدلالات لا يمكن أن نحده بعمل معين، إذ يمكن أن يختلف هذا الأسلوب من نسق إلى آخر فتارة نراه أسلوباً من أساليب الموازنة والمقابلة مستعملاً اسم التفضل حيث تجري الموازنة بين أفعال يقوم بها العباد وبين فعل يقابلهم به الله تعالى وقد لا يظهر هذا الأسلوب صراحة، نتوصل إليه من خلال صورتين يتم عرضهما بصورة تقابلية الغرض منها دائماً هو تجسيد قدرة الله تعالى وإثبات عظمته. كما تمثل في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أو قوله: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾.

٢. ولو أمعنا النظر في كل شواهد المشاكلة نراها لا تقتصر على كونها مجانسة لفظية، فهي تكاد تقترب من أسلوب التشبيه أو الاستعارة في دلالة (المشاركة) فضلاً عما يقوم به كلا الأسلوبين من تصوير ووصف وإيضاح المعنى وتقريبه فالمشاكلة وفق هذه الوظيفة يمكن أن تطلق عليها مصطلحاً يجمع ما بين المجانسة اللفظية وما تقوم به من عمل يخص الاستعارة أو التشبيه بـ(مشاكلة الاستعارة).

٣. وقد تتعدى المشاكلة هنا مجرد المشاكلة اللفظية إلى اختيار لفظة معينة دون غيرها حتى لو اقتضى المقام مخالفة المجانسة اللفظية لدلالة يقتضيها السياق العام فتكون المجانسة هنا معنوية، كما في قوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ ﴾.

٤. وبدلنا السياق على فضيلة بلاغية لم يفطن إليها كثيراً من أهل البلاغة وهي ما يمكن أن نسميه (المفارقة) أي بين ما يتوقعه من رد على فعلهم أو سلوكهم، وبين ما يقرره النظم الكريم.

٥. خصوصية (المشاكلة) بتدبر النص الكريم لأنها تتضمن وصفاً بشرياً واسم الجلالة يجلّ عن كل صفة بشرية إلا ما وصف بها ذاته القدسية، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لذلك لابد للمتلقي من التفكير والتدبر والتأمل للبحث عن المعاني العميقة المقصودة التي يقتضيها المعنى العام للنص، والخصوصية الدلالية التي يحتفظ بها هذا الفن.

# المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم، مكتبة ومطبعة مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة- مصر.
٢. الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ١٩٨١.
٣. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، تحقيق: لجنة من أساتذة الأزهر، مطبعة السنة المحمدية.
٤. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، د.ت.
٥. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكّة، د.ن.
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
٧. جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، القاهرة، ١٩٦٠.
٨. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت.
٩. قراءة جديدة لنظام التكرار في البناء الصوتي للإعجاز القرآني، د.طالب إسماعيل، دار زهران، عمان- الأردن.
١٠. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل، أبو القاسم جار الله الزمخشري، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط١.
١١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية عبد الحق بن غالب (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٣.

١٢. معاني الأبنية في العربية، د.فاضل صالح السامرائي، جامعة الكويت، كلية الآداب، ط١، ١٩٨١.
١٣. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبط ومراجعة: محمد خليل غيتاني، دار المعرفة، بيروت- لبنان.